الرسالة

(عبرانيين ٦: ١٣–٢٠)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ لمَّا وعدَ إبرهيمَ إذ لم يمكن أن يُقسِمَ بما هو أعظمُ منه أقسم بنفسِه* قائلًا لأُباركنَّك بركةً وأُكثِّرنَّك تكثيراً* وذاك إذ تأنَّى نالَ الموعِدَ* وإنَّما الناسُ يُقسِمونَ بما هو أعظمُ منهم وتنقضي كلُّ مشاجرةٍ بينهم بالقَسَمِ للتثبيت* فلذلك لمَّا شاءَ اللهُ أن يزيدَ وَرَثَةَ الموعِدِ بياناً لعدمِ تحوُّلِ عزمه توسَّط بالقَسَم* حتى نحصُلَ بأمرَيْنِ لا يتحوَّلان ولا يمكنُ أن يُخلِفَ اللهُ فيهما على تعزيةٍ قويَّةٍ نحن الذين التجأنا إلى التمسُّكِ بالرجاءِ الموضوع أمامنا* الذي هو لنا كمِرساةٍ للنفسِ أمينةٍ راسخةٍ تدخلُ إلى داخلِ الحجاب* حيثُ دخَلَ يسوعُ كسابقٍ لنا وقد صار على رتبةِ ملكيصادقَ رئيسَ كهنةٍ إلى الأبد.

الصلاة والصوم

بعد مرور أربعة أسابيع على انطلاق الصوم الأربعينيّ المقدّس، تلفت كنيستنا المقدّسة انتباهنا مجدّدًا إلى موضوع الصلاة والصوم، إذ تُتلى على مسامعنا حادثة الولد الذي فيه روح أبكم (مر ٩: ١٧–٣١). تربط الكنيسة هذا المقطع بموضوع الإيمان بقدرة الله.

قد يغفل الإنسان عن أهمّيّة الصلاة والصوم في حياته. ربّما يكون الإنسان ممارسًا للصلاة والصوم ضمن الإطار الذي وضعته الكنيسة المقدّسة، إلاّ أنّه قد يقع في الشكليّات، أي يصبح صومه وصلاته مجرّد عملٍ خارجيّ. يظهر أثر ذلك عندما تواجه الإنسان المؤمن بعض الصعوبات والمشاكل، فيحتار كيف يواجهها، ولا يعي وجود الله في حياته، إنما يظنّ أنّ الله لا يقف إلى جانبه.

يمكننا تعريف الصلاة بأنّها «الجلوس إلى الله»، أي أن يكون الإنسان في حضرة الله وفي حوار معه. ليس الصوم انقطاعًا عن الطعام فقط، بل إعلانٌ عن أنّه «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمة تخرج من فم الله» (مت ٤: ٤). لذلك فإنّ الصلاة والصوم مرتبطان ارتباطًا وثيقًا.

غير أنّ هذين لا يقومان من دون الإيمان بالله أنّه هو الخالق ومصدر حياتنا الوحيد، وأنّنا به «نحيا ونتحرّك ونوجد» (أع ١٧: ٢٨). كيف يمكن للإنسان أن يطلب عطايا الله وهو غير واثق من قدرة الله على تلبية طلبه؟ وكيف يمكن للإنسان أن يصوم وهو ليس واثقًا بأنّ الله هو المعطي الحياة؟ أن نؤمن بالله يعني أن نثق به، وعلى هذا الأساس نحيا ونتصرّف.

نلاحظ في الحادثة التي وضعتها لنا الكنيسة المقدّسة في إنجيل اليوم، أنّ الأب الذي أتى بابنه إلى تلاميذ الربّ يسوع لم يكن واثقًا لا بقدرة التلاميذ ولا بقدرة الربّ نفسه على إخراج الروح الأبكم من ابنه. ربّما سمع بأنّ الربّ يسوع يجترح المعجزات ويشفي المرضى، لذلك أتى إليه لعلّه يشفي ابنه. يظهر عدم ثقة الأب بالربّ يسوع من خلال العبارات التي استخدمها عندما سأل

العدد ١١ / ٢٠١٨
الأحد ١٨ آذار
الأحد الرابع من الصوم
أحد القديس يوحنا السلَّمي
تذكار أبينا الجليل في القديسين
كيرلّس الأورشليمي
اللحن الثامن
إنجيل السَحَر الثامن

الربّ: «إن استطعتَ شيئًا فتحنّن علينا وأغِثْنا» (٩: ٢٢). كان الأبرص الذي نقرأ حادثة شفائه في موضع آخر واثقًا عندما طلب إلى الربّ أن يشفيه، إذ قال له: «إن أردتَ تقدر أن تطهّرني» (مر ١: ٤٠). الربّ يسوع حثّ الأب على الثقة بالله قبل أن يتحنّن عليه ويشفي ابنه، بينما في حالة الأبرص تحنّن عليه فورًا وشفاه: «لكن إن كنتَ تستطيع شيئًا فتحنّن علينا وأعنّا. فقال له يسوع: إن كنتَ تستطيع أن تؤمن، كلّ شيء مستطاع للمؤمن. فللوقت صرخ أبو الولد بدموع وقال: أؤمن يا سيّد، فأعن عدم إيماني. فلمّا رأى يسوع أنّ الجمع يتراكضون، انتهر الروح النجس قائلًا له: أيّها الروح الأخرس الأصمّ، أنا آمرك، أن اخرج منه ولا تعد تدخل فيه. فصرخ وخبطه كثيراً وخرج منه. فصار كالميت، حتّى قال كثيرون: إنّه قد مات. فأخذ يسوع بيده وأنهضه، فقام» (٩: ٢٢–٢٧)؛ «فأتى إليه أبرص يطلب إليه جاثيًا وقائلاً له: إن أردتَ تقدر أن تطهّرني. فتحنّن يسوع ومدّ يده ولمسه وقال له: أريد، فاطهر. فللوقت وهو يتكلّم ذهب عنه البَرَص وطهر» (١: ٤٠–٤٢).

لم يكن الأب وحده غير واثق بالربّ، بل الجمع كلّه، وبينهم كتبةٌ أيضًا. كان الكتبة يعرفون الكتاب المقدّس، ويُفترض أنّهم يؤمنون بقدرة الله، لكنّهم وقفوا إلى جانب الجمع مقابل التلاميذ، وأخذوا يحاورونهم في عدم قدرتهم على إخراج الروح الأبكم. لذلك وبّخ الربّ الجمع كلّه، ومعهم الكتبة، بسبب عدم إيمانهم: «ولمّا جاء إلى التلاميذ رأى جمعًا كثيرًا حولهم وكتبة يحاورونهم. وللوقت كلّ الجمع لمّا رأوه تحيّروا، وركضوا وسلّموا عليه. فسأل الكتبة: بماذا تحاورونهم؟ فأجاب واحدٌ من الجمع وقال: يا معلّم، قد قدّمتُ إليك ابني به روحٌ أخرس... فأجاب وقال لهم: أيّها الجيل غير المؤمن، إلى متى أكون معكم؟ إلى متى أحتملكم؟» (٩: ١٤–١٩).

لم يوبّخ الربّ التلاميذ بسبب عدم قدرتهم على إخراج الروح الأبكم، لكنّه أوضح لهم الطريق المثلى، إذ إنّ الإيمان يجب أن يقترن بالصلاة والصوم: «ولمّا دخل بيتًا سأله تلاميذه على انفرادٍ: لماذا لم نستطع نحن أن نخرجه؟ فقال لهم: إنّ هذا الجنس لا يمكن أن يخرج بشيء إلاّ بالصلاة والصوم» (٩: ٢٨–٢٩).

لذلك تدعونا كنيستنا المقدّسة ألاّ تخور قوانا في الطريق، وألّا يفتر إيماننا، بل أن نجدّد ثقتنا بالله ونتابع مسيرة صومنا، مقرنين الصوم بالصلاة، حتّى نبلغ القيامة المقدّسة.

القانون الكبير

رتّبت كنيستنا المقدّسة قراءة القانون الكبير للقدّيس أندراوس الكريتيّ، نهار الخميس من الأسبوع الخامس في الصوم الأربعينيّ الكبير المقدّس. لقد تمّت قراءة هذا القانون مقسّمًا على أربع مراحل في الأيّام الأربعة الأولى من الصوم، وها نحن نتلوه مجدَّدًا بشكل كامل نهار الخميس.

يُنسب القانون الكبير، المعروف بقانون التوبة، إلى القدّيس أندراوس أسقف كريت (القرن

الإنجيل

(مرقس ٩: ١٧–٣١)

في ذلك الزمان دنا إلى يسوعَ إنسانٌ وسجدَ له قائلًا يا معلّمُ قد أتيتُك بابني به روحٌ أبكم* وحيثما أخذهُ يصرعُهُ فيُزبِدُ ويصرِفُ بأسنانه ويَيبس. وقد سألتُ تلاميذَك أن يُخرِجوهُ فلم يقدروا* فأجابه قائلًا أيُّها الجيلُ غيرُ المؤمنِ إلى متى أكونُ عندكم حتى متى أحتمِلكم. هلمَّ بهِ إليَّ* فأتوهُ به. فلمَّا رآهُ للوقت صرَعهُ الروحُ فسقطَ على الأرضِ يتمرَّغُ ويُزبِدُ* فسأل أباهُ منذ كم من الزمان أصابه هذا* فقال منذ صباهُ، وكثيراً ما ألقاهُ في النار وفي المياه ليُهلِكَهُ. لكن إن استطعتَ شيئاً فتحنَّنْ علينا وأغِثْنا* فقال له يسوعُ إن استطعتَ أنْ تؤمِنَ فكلُّ شيءٍ مُستطاعٌ للمؤمن* فصاحَ أبو الصبيّ مِنْ ساعَتهِ بدموعٍ وقال إنّي أُؤمِنُ يا سيّد. فأَغِثْ عدم إيماني* فلمَّا رأى يسوعُ أنَّ الجمعَ يتبادرون إليهِ انتهرَ الروحَ النجسَ قائلاً لهُ أيُّها الروحُ الأبكمُ الأصمُّ أنا آمرك أنِ اخرُجْ

منه ولا تعُدْ تدخلُ فيهِ* فصرخ وخبَطهُ كثيراً وخرج منه فصار كالميتِ حتى قال كثيرون إنَّه قد مات* فأخذ يسوعُ بيدهِ وأنهضهُ فقام* ولمَّا دخل بيتاً سألهُ تلاميذُهُ على انفرادٍ لماذا لم نستَطِع نحن أن نُخرِجَهُ* فقال لهم إنَّ هذا الجنسَ لا يمكن أنْ يخرُجَ بشيءٍ إلَّا بالصلاة والصوم* ولمَّا خرجوا من هناك اجتازوا في الجليل ولم يُرِد أن يَدْري أحدٌ* فإنَّه كان يعلّمُ تلاميذَهُ ويقول لهم إنَّ ابنَ البشر يُسلَمُ إلى أيدي الناس فيقتلونَه وبعد أن يُقتَل يقومُ في اليوم الثالث.

تأمل

إنّ الصوم هو الذي يقود القدّيسين إلى الحياة مع الله...

إنّ الصوم هو جناح الصلاة لترتفع إلى السماء وتخترق إلى عرش الله... هو عماد البيوت، حاضن الصحّة، معلّم الشباب، زينة الشيوخ، صديق الأرواح.

إنّ الفضيلة لا تستقيم إلاّ بالنسك لأنّ النسك يلجم الشهوات. والطعام لا ينفع الجاهل هكذا قال سليمان الحكيم: «لا تهتمّوا لأجسادكم بما تأكلون».

السابع)، لأنّه كتب القسم الأكبر منه، وقد ساهم كلٌّ من القدّيسَين ثيوذوروس الاستوديتيّ ويوسف الصقلّيّ (القرن التاسع) في إتمامه. أُضيفت إليه، في القرنَين الحادي عشر والثاني عشر، قطعٌ عن القدّيس أندراوس وأُخرى عن القدّيسة مريم المصريّة، فوصل عدد الطروباريّات التي تشكّل هذا القانون حاليًّا إلى ثلاثمئة طروباريّة، تسبق كلاً منها عبارة «إرحمني يا الله ارحمني».

يهدف قانون التوبة الكبير إلى حثّ المؤمنين على التوبة. يُكثر القدّيس أندراوس من استعمال الأمثال والأحداث الواردة في الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد على السّواء، بخاصةٍ تلك التي تروي سير الأنبياء والأبرار والصالحين الذين وقعوا في الخطايا والزلّات، لكنّهم عادوا فتابوا وغيّروا سلوكهم وابتعدوا عن كلّ عمل رديء، مسارعين نحو الأعمال المقبولة لدى الله. إضافةً إلى ذلك، لا يغفل القدّيس أندراوس عن ذكر حياة الرّبّ يسوع وَصِفَاته، وجوهر رسالته الخلاصيّة التي نادى بها في إنجيله، إذ إنّ المسيح هو أساس القانون بأسره وهو المخلّص الوحيد.

إذًا، يتميّز هذا القانون بطابعه التعليميّ. هدفه تشديد المؤمنين لكي لا يقعوا في اليأس الناتج عن الخطيئة والفهم الخاطئ لرحمة الله. كأنّ القدّيس أندراوس يشاء أن يقول لقارئ قانونه: كما قَبِلَ الله توبة الأبرار والصدّيقين، كذلك سيقبل توبة كلّ من يهرع إليه من المؤمنين.

لا تغيب عن ذهن القدّيس أندراوس أيّة سيرةٍ نافعةٍ مليئةٍ بالعِبَر، من آدم وصولًا إلى التّلاميذ والرسل القدّيسين. نتساءل لِمَ صوّر لنا شخصيّات الكتاب المقدّس تلك في قانونه الكبير، مثل قايين وهابيل وداود وسليمان وغيرهم. السّبب واضح وهو أنّه يريد إظهار قوّة الخطيئة ومن أيّ علوّ يُمكنها أن تُسقِط الإنسان، وفي المقابل كيف ترفع التوبة الصادقة الإنسان وتجعله يقترب من الله أكثر فأكثر. الجدير ذِكرُه هو عدم تهاون القدّيس أندراوس في وصف خطايا تلك الشخصيّات الكتابيّة من دون أن يرسو عليها، ذلك من أجل إبراز عظمة توبتهم من جهة، وتشجيع الساقط في الفجور على التوبة من جهةٍ أُخرى. هذا الأمر نراه مع سليمان الحكيم، ومنسّى الذي ارتكب الآثام، وسواهما من كبار التائبين في العهد القديم. يدعونا القدّيس أندراوس أيضًا إلى التشبّه بأهل نينوى الذين جاءهم يونان النبيّ فتابوا إلى الله. كما لا يغفل القدّيس عن ذكر الأحداث التي تمّت مع الربّ يسوع والتعاليم التي علّمنا إيّاها من خلال الأمثال وسواها، نَذكُر منها على سبيل المثال لا الحصر: زكّا العشّار والمرأة الزانية والسامريّة، ومثل السامريّ الصالح الذي عمل «بالطّبيعة ما هو في النّاموس» (رو٢: ١٤). يورد القدّيس أندراوس أيضًا تصرّفاتٍ نتجت عن بعض الرسل لِيَعرض لنا ما هو نافعٌ لتوبة المؤمنين وخلاصِهم.

أخيرًا، يُبرز القدّيس، من خلال قانونه، جوهر رسالة الربّ يسوع، الذي يشير إليه بصفاتٍ كثيرة، مُظهرًا لنا أنّ المخلّص الوحيد هو

الربّ يسوع المسيح الرّافع حِمل الخطيئة الثّقيل، وهو نفسه الراعي الصالح الضّارب بعصًا من حديد، والذي سيحاسب العالم أجمع في الدينونة الأخيرة.

هذه هي الخلاصة العامّة والأساسيّة التي وصل إليها القدّيس، لا في موضعٍ واحدٍ من القانون فقط، بل القانون ككلّ. تاليًا، نستطيع القول إنّ الكنيسة المقدّسة لم تخطئ عندما خصّت هذا القانون دون سواه بصفة «الكبير»، والدافع لذلك كان، كما نظنّ، غزارة معانيه وعمق لاهوته وكبر حجمه.

ألا عرفنا جميعًا كيف نسلك درب التوبة الحقيقيّة الموصِلة إلى الملكوت السماويّ، بشفاعات القدّيس أندراوس الكريتيّ وجميع الآباء والأبرار والصدّيقين المذكورين في قانون التوبة الكبير.

المحبة المسيحية

أن نحبّ الآخر، ليس أمراً صعباً. دعونا نفكّر حالاً قائلين: «إن كنتُ مكانَ فلان، ماذا أريده أن يفعل بي؟» ثم اعمل أنت تماماً بحسب هذا الكلام.

هذه هي الفضيلة المسيحية، والمحبّة المسيحية. ليست الحياة المسيحية ما يظنّه الناس ولا ما يصنعونه، لكنّها تحديداً ما يقوله السيّد المسيح: «كونوا رحماء كما أنّ أباكم أيضاً رحيم» (لو ٦: ٣٦). أيضاً: «كونوا أنتم كاملين كما أنّ أباكم الذي في السموات هو كامل» (مت ٥: ٤٨). الله رحيم وكامل، فلنصبح رحماء لكي نصير كاملين أيضاً.

لا أثر للكراهية أو الإنتقام أو الشرّ مطلقاً في جوهر الله، بل فيه المحبة التي لا يحدّها زمان ولا مكان وليست متّجهة نحو أشخاص دون الآخرين. دعوة الله لنا أن نكون مثله صِدّيقين ومحبّين ورؤوفين ورحماء ومتواضعين. هذه هي حالة إنسان الله الطبيعيّة. إن لم نكن كذلك، لا يكون وضعنا جيّداً. الأسوأ من هذا كلّه أنّنا نعتبر تشبّهنا بالله أمراً يفوق طاقة الإنسان. هل نفهم الآن مدى انحرافنا؟

عندما يسمع مَن يؤمن فعلاً بالله أنّ علينا التشبّه بالله في محبّة الأعداء والغفران للجميع، والرّحمة والكمال، يتمسّك بالله ولا يحسب لنفسه حساباً أبداً، ولا يحاول إنقاذ نفسه إطلاقاً، بل يثق بالله ويرغب متعطّشاً في أن يصبح شبيهاً له يوماً ما. يحدث الأمر فعلاً، وقد حدث مع القدّيسين الذين بدّلتهم النعمة فأصبحوا مشابهين لله. إنّ الإنسان الخاطئ يصنع الشرّ فقط، لكنّه إذا آمن بالله وسلّمه ذاتَه، لن يكون مثل الله فقط حين يغادر هذا العالم (١ يو ٣: ٢)، بل سيجعله الله مشابهاً له في هذه الحياة أيضاً، حينئذٍ سيحبّ الكلّ مثل الله.

من كتاب «أين أنت يا آدم؟»
للأرشمندريت سيميون كرايوبولُس

للإطلاع على أخبار الأبرشية:
www.facebook.com/metbei
أو
www.quartos.org.lb

هكذا قال السيّد أيضاً.

والفضيلة دوماً قرنت النسك بالصوم. فموسى صام أربعين يوماً ثم صعد إلى السماء وتكلّم مع الرب... ودانيال صام واحداً وعشرين يوماً ثم صار في الرؤيا... والفتية الثلاثة لم تؤذهم نار الأتون المحمي بسبب صومهم وصلاتهم... ويوحنا المعمدان قضى حياته كلّها في تقشّف وزهد وأعلن الرب للعالم نوع غذائه ولباسه، الذي كان يخفيه للناس، ليكون لنا منه عظة.

لست أعني بالصوم ترك الطعام الضروري لأن هذا يؤدّي إلى الموت. لكن أعني ترك المأكل الذي يجلب لنا اللذّة ويسبّب تمرّد الجسد.

قد تكون هناك أشياء كثيرة فيها خطيئة ومع ذلك يجب أن نتنسّك عنها إذا كان في ذلك ربح لنا وللآخرين. «إذا كان الطعام يشكّك أخي فلن آكل اللحم إلى الأبد» (١ كو ٨: ١٣) «حسن أن لا تأكل لحماً ولا تشرب خمراً أو شيئاً يشكك أخاك أو يعثر أو يضعف...» (رو ١٤: ٢١).

الصائم الحقيقي هو الذي يتغرّب عن كل الآلام الجسدية حتى الطبيعية.

القديس باسيليوس الكبير